

بحلول الذكرى 94 لانتصار ثورة العمال بروسيا، نقدم للقارئ-ة الفصل الثالث من كتاب المؤرخ الفرنسي، الماركسي الثوري، بيار برويه. صدر الكتاب بفرنسا في العام 1963 عن دار مينيوي

كان الحزب، بين يدي لينين و تروتسكي، أداة بلا نظير. هذا لأن زهاء عشرة آلاف مناضل/ة لاشرعي، الذين كانوا استأنفوا الاتصال غداة الأيام الثورية في فبراير 1917، سيشكلون، في أقل من ثمانية أشهر، منظمة ستعتبرها الجماهير العمالية العريضة، وبدرجة أقل الجماهير الفلاحية، منظمته. وكان سيوجهها في النضال ضد الحكومة المؤقتة، و الظفر بالسلطة و الاحتفاظ بها. سينجح لينين ورفاقه، في خضم صراعات التكتلات و القمع، حيث فشل في النهاية اشتراكيون آخرون كانوا في ظروف هي للوهلة الأولى مواتية أكثر ، فأول مرة منذ وجدت أحزاب اشتراكية سيحقق أحدها النصر.

حزب عمالي اشتراكي-ديمقراطي

إن رصيда كاملا من المؤلفات التاريخية، تتراوح مشاعره المعلنة إزاء البلشفية بين الإعجاب الأعمى و التحقير المنهجي، يُجهد لإظهارها بما هي إيديولوجية جديدة خرجت كاملة السلاح من دماغ لينين هي الشيوعية، الثورية أو الستالينية، و إبراز الحزب البلشفي بما هو منظمة من طراز جديد كليا، نوعا من الأممية الثالثة في صيغة أولى سابقة، في تعارض منذ ظهوره مع إصلاحية الأممية الثانية التي جسدها في روسيا المناشفة، وفي ألمانيا حزب بيبل و كاوتسكي الاشتراكي-الديمقراطي. لكن، ليس في هذا التصور غير إعادة تشكيل مصطنعة، لاحقة، لتاريخ كل من المنظمة و الأفكار على السواء. و يمثل كتاب لينين ما العمل؟، بنظر كل هؤلاء الكتاب، إنجيل البلشفية متصورة ككتاب جديد. و الحال أنه ليس ثمة بناتا ما يسمح بقبول أن الأمر كان على ذلك النحو بالنسبة للبلاشفة، وفي نظر لينين ذاته. إن ما يتناوله بالفحص في ما العمل؟ هو الظروف الروسية، و ما يحل هو اتجاهات الطبقة العاملة الروسية، وما يدعو إليه حل روسي دون ادعاء إتيان تحليل و استنتاجات صالحة لبلدان أخرى في تلك الحقبة. ففي المقدمة التي كتب في سبتمبر 1907 لكراسة مقالات له بعنوان "في 12 سنة"، كتب: "إن الخطأ الأساسي لمن يُساجلون اليوم كراسة ما العمل؟ يكمن في عزل كامل لهذا المؤلف عن سياقه في وضع من تطور حزبنا محدد ومتجاوز منذ أمد طويل[...]. إن ما العمل؟ موجز لتكتيك مجموعة ايسكرا و سياستها التنظيمية في 1901 و 1902. و ليس غير موجز، لا أقل و لا أكثر. لم يكن بوسع أي منظمة غير التي تقدمت بها ايسكرا، في الشروط التاريخية لروسيا سنوات 1900-1905، أن تخلق حزبا عماليا اشتراكي-ديمقراطيا كالقائم اليوم. إن الثوري المحترف قد اضطلع بمهته في تاريخ الاشتراكية البروليتارية الروسية" [1]. ومن جهة أخرى كتب لينين، منذ نوفمبر 1905، تلك الإدانة النهائية لمن جمدوا فكره في إطار ميكانيكي ومجرد، مدعين بشكل ترسمي تعارضا بين العفوية و الوعي عند لينين حسب صيغ ما العمل؟ ، كما لو كانت لهذا المؤلف بنظر لينين قيمة كونية و أهمية أزلية، إذ قال: "إن الطبقة العاملة الروسية اشتراكية ديمقراطية (أي ثورية) على نحو غريزي و عفوي، و السنوات العشر و أكثر من عمل الاشتراكيين الديمقراطيين كان لها اثر كبير لتحويل تلك العفوية إلى وعي تطبيقي" [2]. كما يؤكد ما العمل؟ على الضرورة المطلقة لتنظيم الحزب سرياً، و يجعل منها حتى شرط وجوده. لكنه لا يستبعد منظور عمل و دعاوة شرعيين إذا أتاحه الظروف التاريخية. عندما أتاحت ثورة 1905 للعمال انتزاع إمكانات تعبير و تنظيم شرعيين للأحزاب السياسية، بما فيها الاشتراكية، لم يخطر ببال البلاشفة رفض الإفادة منها. لكن لينين أدان، و اعتبر "تصفويًا"، تصور من كان من المناشفة يريد قبول الإطار المحدد من العدو الطبقي و الاقتصار على النشاط و الدعاوة الشرعيين وحسب. هذا لأن القانون يرسم الحدود للأحزاب، و لا يمنح الثوريين حرية تعبير و عمل نسبية سوى بقصد حفاظ أفضل على الأساسي من سيطرته: لا يقبل النظام القيصري إلا كرها وقسرا حريات هي أيضا صمام أمان. إن "قبول اللعبة" و الاكتفاء بما هو شرعي، قبول للحدود التي رسمها هو ذاته، و التخلي عن قسم النقد الثوري الذي يمنعه بصفته " تخريبيا ". لكن ليس المطلوب، بهذا المبرر، ترك استعمال التسهيلات التي يتيحها القانون، لأن الدعاوة الشرعية وحدها بوسعها بلوغ أوسع فئات العمال. لذا يجب استعمالها حتى أبعد حد، و قد جعل لينين من الجريدة، ثم من الجريدة اليومية الشرعية، هم الأول لمجموعته في كل الفترات حيث كانت هكذا أداة قابلة للتحقيق.

بهذا الصدد، كان مثال جريدة البرافدا مميّزا، لأن هذه الجريدة اليومية " العمالية " ، كانت عشية حرب 1914، الأداة الرئيسية لتطور الحزب البلشفي. جرى إطلاق تلك الجريدة بعد حملة تحريض علني في المصانع من أجل اكتتاب مالي. كانت البرافدا بالنسبة لعشرات آلاف العمال الطليعيين، بما نشرت من أخبار و أطلقت من شعارات، نظيرا لما مثلته جريدة ايسكرا في البداية بالنسبة ليضع مئات. كان العمال مراسلو البرافدا وسائط اتصال الحزب و وسائل الإرسال و الالتقاط antennes لمعرفة حالة العمال الذهنية: فمن خلال معلوماتهم كان يجري توحيد التجربة العمالية، بما هو عنصر وعي جماعي. في ظرف سنة واحدة نشرت البرافدا 114 11 "مراسلة" من هذا النوع، أي بمعدل 41 مراسلة في كل عدد. وكانت البرافدا جريدة "عمالية" بالاسم، وبنجزها إلى حد بعيد عمال، وكانت شأنهم، حيث كانوا هم من يعطي المساهمات المالية " للصندوق الحديدي" المحدث لمواجهة كل الضربات الموجهة للجريدة من غرامات و مصادرات.

هذا لأن الجريدة الشرعية كانت مجبرة، بموجب القانون، على تعيين عنوان، ومسؤولين. ولا مفر لها من المتابعات، و الشكايات التي تلجأ إليها الدولة وممثلو القوى الاجتماعية المعادية بغاية منع مواصلة وجودها الشرعي بالذات. جرى حجز 110 عدد من 270 الصادرة. وبلغت الغرامات 7 800 رويل، أي ضعف الرصيد المالي لانطلاق الجريدة، و تعرضت للمحاكمة 36 مرة، وُحکم على محرريها بما مجموعه 472 شهر سجن [3]. إنها حصيلة ثقيلة على جريدة تسعى مع ذلك إلى تفادي القمع، فيما الشرطة تنس في هيئة تحريرها عملاءها، المكلفين بافتعال فرص متابعتها بمقالاتهم.

في تلك الشروط، كانت حرية تعبير الجريدة محدودة، ولم يكن بوسعها أن تطلق على نحو شرعي الشعارات التي تراها صائبة، لا سيما تجاه العمال و الفلاحين المجندين في الجيش. ففي ظل خطر الاختناق بالحجز و المحاكمات و تكاثر الغرامات، كان على الجريدة، التزام الحدود التي يرسمها القانون. و لنشر شعارات النضال الأخرى، وإعطاء التفسيرات التي لا غنى عنها لكنها ممنوعة بسبب مسها بـ"امن" الدولة، لا يمكن أن تكون وسائل التعبير سوى غير شرعية، كي لا تجد الشرطة فورا المسؤولين عنها أو تمنع نشرها: ذلك دور المناشير، و الكراسيات أو الجرائد غير الشرعية. إنه من البلاد، في الشروط

السياسية التي طبعت روسيا القيصرية، كما في الإطار الليبرالي للديمقراطيات الغربية و أكثر منه، وضع البيض كله في نفس السلة. فالجريدة الشرعية قد تتعرض للمنع، و الحجز، و المتابعة، و مناضل "شرعي" معروف لدى الشرطة و قد تعتقله، و تضع بمبرر ما حدا لنشاطه. إذا كانت المنظمة علنية بالكامل، سيكون مناضلوها و دواليها الأساسية معروفين لدى الشرطة، ما سيجب للدولة أن تمنع، من يوم لآخر، كل رد فعل وحتى كل اشتغال. يجب إذن أن يكون للحزب العمالي مناضلون وموارد ومطابع و جرائد و مقرات سرية، غير معروفة، مهياة لمواصله عمل " القطاع الشرعي" في حقبة الرده الرجعية، وأن تكون بكل الأحوال، بفضل طابعا للشرعي، مغلقة من ضرورة حصر نشاطها في الإطار المسموح به. إن طابع الدولة الروسية الأوتوقراطي، و العسف البوليسي كلي القدرة، هو الذي أجبر الاشتراكيين-الديمقراطيين الروس على بناء حزبهم انطلاقا من قطاع غير شرعي، ف"الحريات الديمقراطية" لم تكن قديمة بلدهم في العام 1912 لتبدو لهم عادية و أبدية، و لينسوا شروط ظفرهم بها، و كيف يمكن أن يفقدوها.

لكن العمل اللاشرعي ليس هدفا بحد ذاته. فالمشكل الحقيقي يتمثل في استعمال كل الإمكانيات حتى أبعد حد لتشكيل حزب عمالي اشتراكي ديمقراطي، فصيل طبيعي واع، مسلح بمعرفة قوانين التطور الاجتماعي، يدفع إلى أمام الوعي الطبقي داخل الطبقة العاملة، و ينظمها، و يقودها إلى المعركة، أيا كانت ظروف النضال العامة. وفق هذا المنظور، شارك البلاشفة، بعد حقبة المقاطعة، في الانتخابات بشكل منهجي، حتى عندما يكون تزوير القوانين الانتخابية جليا. ليس الهدف، و لا يمكن أن يكون، تحقيق نصر برلماني، بل كما تشير مذكرات باداييف، استعمال المنبر البرلماني لنشر الأفكار الاشتراكية و لبناء الحزب.

جرت العادة على إقامة تعارض، من هذه الزاوية، بين الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي و نظيره الألماني، المتمسك بشرعيته، و بمكاسبه البارزة، و بجرانده اليومية الثلاثة و الأربعين، و مجلاته، و مدارسه، و جامعاته، و صناديقه التضامنية، و "دور الشعب" التابعة له، و نوابه، و الذي أصبح في النهاية سجيناً لها. هذا لأن الخوف من القمع، الذي قد يعصف بتلك المكاسب، جعل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني رهينة طوعية للطبقات المالكة، يكبح بنفسه جماح شبابه، و يمنع كارل ليبكنخت من الدعاوة "اللاشرعية" المعادية للنزعة العسكرية بمبرر أنها قد تثير غضب البرجوازية و تجدد القمع البوليسي، لكن التي لا يمكن لاشتراكي أن ينكر ضرورتها في ألمانيا غيوم الثاني.

و فقط خلال أزمة 1914 وحدها اتضحت بالكامل الهوة التي تفصل المنظمين في موقفهما إزاء حكومتيهما المتحاربتين. قبل هذا التاريخ، كان لينين متفقا، بصدد عدد من النقاط الدقيقة، مع النقد الذي طوره اليسار الألماني، بخاصة روزا لوكسمبورغ، لكن الخلافات بينهما كانت عديدة و هامة بقدر بثبات انعدام تكتل يساري متماسك في الحركة الاشتراكية الديمقراطية العالمية. وحده التحليل التاريخي للماضي يتيح إقامة تعارض، في تاريخ الحركة الاشتراكية الديمقراطية، بين تيار لينين و روزا لوكسمبورغ الثوري و تيار بيبل و كاوتسكي الإصلاحية. قبل العام 1914، كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي، بنظر لينين و البلاشفة، طراز الحزب العمالي الذي يسعون إلى بنائه في روسيا، أخذا بالحسبان الظروف الخاصة. وقد كرر لينين ذلك مرارا، بعد أن فند بوضوح و صراحة التأويل العكسي لنوابه: "أين و متى يا ترى، ادعيت أنني خلقت تيارا ما خاصا في الاشتراكية الديمقراطية العالمية، مغايرا لتيار بيبل و كاوتسكي؟ أين ومتى تجلت خلافات بيني و بين بيبل و كاوتسكي؟" [4]. يشهد البلشفي القديم شليابنيكوف Chliapnikov أن البلاشفة كانوا، في دعواتهم تجاه العمال، يجعلون من الاشتراكيين الديمقراطيين الألمان نموذجهم. وقد وصف بياتنيتسكي Piatnitski مشاعر إعجابه، بصفته بلشفيا مهاجرا، بسير عمل المنظمة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية، و اعترف بأنه صدم بالانتقادات المعبر عنها أمامه، بشكل غير معلن، بصدد هذا الوجه أو ذلك من سياستها. وستكون ضغينة البلاشفة أشد بعد أغسطس 1914 لما سيراجعون تقييمهم لتيار بيبل-كاوتسكي، و يعترفون أن روزا لوكسمبورغ، التي اعتبرها لينين لحظتنا "ممثلة الماركسية الأكثر أصالة"، كانت على صواب ضدهم حول هذه النقطة. هذا لدرجة أن لينين كان شك في صحة عدد جريدة الحزب Vorwärts الذي نشر تصريح الفريق الاشتراكي الديمقراطي بالرايشتاغ المصوت على تمويل جهود الحرب، و وضع احتمال تزوير قامت به هيئة أركان الحرب الألمانية.

في ابريل 1917، في ندوة الحزب البلشفي، كان لينين، يعد عودته إلى روسيا، الوحيد الذي صوت على اقتراحه التخلي عن تعبير " الاشتراكي الديمقراطي" في اسم الحزب. وهذا دليل انه لم يكن يخشى وضع عزلة داخل منظمته، وانه لم يكن قبل 1914 أعد قطعة مع الأهمية الثانية و أحزابها الكبيرة، و لا رغب فيها. وهذا دليل أيضا على انه كان بعد ثلاثة سنوات من أغسطس 1914 متقدما جدا بهذا الصدد عن رفاقه أنفسهم.

حزب غير مونوليثي

و على النحو ذاته، وأيا كانت مسؤوليات لينين و تكتله في انشقاق 1903، رأينا أنهم لم يكونوا راغبين فيه، و لا هم أعدوه أو توقعوه، وانه باعتهم و سعوا لاحقا، دون مساومة على مبادئهم، إلى إعادة توحيد للحزب، كانوا يأملون طبعاً أن تجري تحت رايتهم، لكن أكد أنها لن تؤدي سوى إلى حزب أقل تجانسا و أوسع مما كان التكتل البلشفي طيلة تلك السنوات. منذ العام 1894، كتب لينين، مساجلا ميخايلوفسكي: "صحيح تماما أنه ما من إجماع تام لدى الماركسيين. [...] ليس غياب الإجماع هذا دليل ضعف، بل قوة الاشتراكيين الروس [...] إجماع الناس الذين يشفون غلتهم بالإجماع على "حقائق مطمئنة"، هذا الإجماع الناعم جرى استبداله بخلافات بين ناس يسعون إلى تفسير للتنظيم الاقتصادي الفعلي، للتنظيم الاقتصادي الراهن لروسيا، [...] تفسير لتطورها الاقتصادي الفعلي، و تطورها السياسي، و تطور باقي بنياتها الفوقية" [5]. و يجد عزمه على إعادة توحيد الحزب، عشية العام 1905، تفسيره في ثقته في أفكاره الخاصة كما في الاقتناع بأن الخلافات التي لا بد منها بين الاشتراكيين الديمقراطيين قد تجري تسويتها داخل حزب يمثل بيئا للجميع. كتب في تموز 1905: "اختلاف الآراء داخل الأحزاب السياسية أو بينها أمر ستجري تسويته عادة بالسجلات، لكن أيضا بتطور الحياة السياسية ذاتها. وبوجه خاص تجري تصفية الخلافات حول تكتيك حزب بالانتقال الفعلي لمن كانت لديهم آراء خاطئة إلى خط صائب، لأن مجرى الأحداث ذاته [...] ينزع عن تلك الآراء مضمونها وفائدتها" [6].

وأبدى بهذا الصدد ثقة كبيرة بما يخص تطور المناشفة اللاحق، حيث كتب في تموز العام 1906: "سيمر الرفاق المناشفة من مظهر التكتلات مع الانتهازيين البرجوازيين، و سيعودون إلى الاشتراكية الديمقراطية الثورية" [7]. وبنظر كروبسكايا، في العام 1910، "لم يكن فلاديمير لينين يشك في حصول البلاشفة على الأغلبية داخل الحزب، و لا في أن هذا الأخير سينتج، في نهاية المطاف، وفق النهج الذي رسمه البلاشفة، لكن يجب أن يشمل هذا الحزب كله و ليس تكتل لينين وحده" [8]. وفي العام 1912، لم تلق ندوة براغ الحرم سوى على أعداء العمل اللاشرعي، التصفيين. هكذا يفسر التعاون مع "مناشفة الحزب" لا بمناورة تكتيكية بل بالاعتناع، المعبر عنه منذ ديسمبر 1906، بأن "الاشتراكية الديمقراطية ستكون حتما، حتى قدوم الثورة الاشتراكية، بجناح انتهازي و آخر ثوري" [9]. انه الموقف الذي دافعت عنه في بروكسيل إينيس أرمان بقولها: ما عدا التصفيين، ثمة مكان لكل اشتراكي ديمقراطي في الحزب، حيث يجب، في روسيا كما في الغرب، أن يتعايش على نحو عادي الثوريين و الإصلاحيين، لأن الثورة وحدها ستحسم في نهاية المطاف بينهم، بما هي التعبير النهائي عن "تطور الحياة السياسية".

نظام الحزب

منذ عهد ستالين، يؤكد أغلب المؤرخين والمعلقين على النظام السلطوي بالغ المركزية للحزب البلشفي، وينتهون إلى اعتبار ذلك مفتاح تطور روسيا خلال أكثر من ثلاثين سنة. فيما يخص طابع الحزب بالغ المركزية، لا تعوزهم الاستشهادات لإسناد أطروحاتهم. و الواقع أن الاستشهادات في الاتجاه المعاكس كثيرة أيضا: يمكن تقويل لينين، وغيره، أمورا كثيرة بجمال مقطوعة من سياقها. و الحقيقة أن هم لينين الأول كان بناء حزب نضال، وفي هذا المنظور لا يمكن تصور بنائه، وطبيعته، وتطوره، ونظامه ذاته، بمعزل عن الظروف السياسية العامة، وعن درجة الحريات العامة، و ميزان القوى بين الطبقة العاملة، و الدولة و الطبقات المالكة.

كتب لينين، ما بين 1904 و 1905، مساجلا المناشفة، فيما كان كل الاشتراكيين في السرية: "نحن أيضا نؤيد الديمقراطية، عندما تكون ممكنة فعلا. سيكون ذلك حاليا مزاحا، وهذا لا نريده، لأننا نريد حزبا جديا، قادرا على هزم القيصرية و البرجوازية. لا يتيح وضعنا السري الفروض تحقيق الديمقراطية الشكلية في الحزب. [...] كل العمال الواعون المدركين ضرورة إطاحة الأتوقراطية و محاربة البرجوازية، يدركون أن هزم القيصرية يستوجب في هذا اللحظة حزبا سريا، ممرزا، وثوريا، مرصوصا في كتلة واحدة. إن اعتماد نظام الانتخابات و الديمقراطية، في ظل الأوتوقراطية، بقمعها الشرس، يمثل ببساطة مساعدة للقيصرية على تدمير منظمنا" [10]. و كتب في مقال القفص الجميل لا يغذي العصفور: "يدرك العامل الجدي أن الديمقراطية ليست هدفا بذاتها، بل وسيلة من أجل تحرر الطبقة العاملة. نعطي الحزب البنية المستجيبة على أفضل وجه لحاجات نضالنا في هذه اللحظة. ما نحن بحاجة إليه اليوم هو نظام ترانبية و مركزية صارمة" [11].

إبان المؤتمر الثالث، فيما الحركة الثورية تتسع من يوم لآخر، كتب يقول: "في شروط حرية سياسية، يمكن أن يكون حزبا، وسيكون، قائما على مبدأ الانتخاب. [...] و حتى في ظل الحكم المطلق، كان بوسعنا أن نطبق على نحو أوسع مبدأ الانتخابات" [12]. وقد قررت ندوة تامر فور التطبيق الشامل لمبادئ "المركزية الديمقراطية" في منظمة الحزب، و "مبدأ الانتخاب على أوسع نطاق، مع منح الهيئات المنتخبة كامل صلاحيات القيادة الإيديولوجية و العملية، ومبدأ إقالة هذه الهيئات و مبدأ كشف حساب نشاطها ونشره على أوسع نطاق". وفي تقديمه لكراسة "في 12 سنة"، أعاد لينين التذكير، مساجلا بصد ما العمل؟: "استعمل الحزب، رغم الانشقاق، كل بصيص حرية آني لاعتماد بنية ديمقراطية في منظمته العلنية مع مبدأ انتخاب و تمثيل في المؤتمر مطابق لعدد المناضلين المنظمين" [13].

بنظر البلاشفة، يعكس "النظام" الداخلي في الحزب الشروط العامة للصراع الطبقي، لكنه بدوره عامل مستقل. وقد جربه لينين في تكتله الخاص عندما اصطدم باللجانين الذين شهدت كرويسكايا أنهم لا يقبلون أي ديمقراطية داخلية و يرفضون كل تجديد، بسبب العجز عن التكيف مع الظروف الجديدة: يعارضون دمج عمال في اللجان بميرر عزهم عن العمل فيها، ويدعون التحكم بفاصيل كل نشاط، و الحفاظ على مركزة و ترانبية صارمين. و أعاد لينين إلى أذهانهم أن "الحزب لا يوجد من أجل اللجنة، بل اللجنة توجد من أجل الحزب". "غالبا ما اعتقد أن تسعة أعشار البلاشفة هم حقا متمسكون بالشكليات. [...] يجب أن نقوم بتنسيب الشباب إلى الحزب بمزيد من سعة النظر، و بمزيد من الجراءة، دون تخوف منهم، و نسيان كل الممارسات المعيقة و احترام الألقاب، الخ. [...] إعطاء كل لجنة بالقيادة، بلا مبالغة الشروط، حق صياغة منشير و توزيعها. و لن يكون الأمر جسيما إذا ارتكبت اللجان أخطاء، فسنصححها بلطف" في جريدة فيبريود. و الأحداث ذاتها تعلم وفق روح وجهة نظرنا" [14]. و تشير كرويسكايا إلى أن لينين لا يبالغ في التخوف من عدم استماع اللجانين إليه: "كان يعلم أن الثورة سائرة و ستجبر الحزب على قبول العمال في لجانهم" [15].

السرية ملائمة طبعاً للمركزية السلطوية، بالنظر إلى أن الانتخاب لا معنى له سوى بين مناضلين يعرفون بعضهم البعض و بوسعهم ممارسة رقابة متبادلة. إلا أنها تحد من آثارها بقدر ما تفصم العلاقات بين مختلف مستويات الترانبية، و تترك للجان المحلية هامش مبادرة هام. إن مجموعات اشتراكية ديمقراطية مرتبطة بالكتل البلشفي هي من أصدرت منشير داعية إلى الإضراب و التظاهر يوم 15 نوفمبر 1912 في سان بطرسبورغ: حسب شهادة باداييف، لم تُحظر بالأمر أي هيئة مسؤولة بالمركز و لا بالعاصمة، و لا أي عضو بالفريق البرلماني [16].

احتاج القادة البلاشفة عدة أيام لمعرفة من تحمل مسؤولية هذا النداء. لكنهم ساندوا هذا الإضراب، و إن اعتبروه ناقص التحضير، لأنه كان شعبيا بين العمال. وكان هذا النوع من الأحداث كثير الحدوث. لم يتمكن بيانتينسكي، الذي يضطلع منذ سنوات بوظائف هامة في الجهاز السري، من الحصول عام 1914 على عنوان مسؤول بلشفي في مدينة سامارا حيث وجد عملا. فقد كان البلاشفة اندمجوا بتلك المدينة مع المناشفة، و بعد أن عثر بوسائله الخاصة على "الصلة"، بادر بيانتينسكي إلى إعادة تنظيمهم على نحو مستقل، مقنعا إياهم بناء على معلوماته الشخصية لا غير، و بلا أي "تفويض" [17].

كان من الأكثر روجا ضمن المؤاخذات على تنظيم البلاشفة تسهيله الكوارث الناتجة عن نجاح عملاء الشرطة في التسرب إلى التنظيم. و توضح بعض الأمثلة هذا الأمر. كان الطبيب جيتوميرسكي عميلا للأوخرانا [شرطة القيصر السرية] لما جرى تكليفه في العام 1907 بربط الصلة بين روسيا و المهجر. و في العام، 1910 كانت الجرائد المطبوعة في سويسرا أو ألمانيا تصل بانتظام بين أيدي الشرطة، لان المسؤول عن نقلها، المدعو ماتفي Matvéi كان منذ سنوات عميلا للأوخرانا. لكن يجب فعلا الاعتراف أن عملاء الشرطة السياسية كانوا يحسنون استعمال كل السبل للتسرب إلى الحزب، و أن النظام البوليسي لروسيا هو الذي يسهل، أكثر من نظام الحزب الداخلي، استخدام الشرطة لمناضلين يحظون بثقة رفاقهم و قبلوا في السجن القيام بدور مخبرين.

و أبرز مثال هو ماليونوفسكي Malinovski كان هذا مناضلا عماليا، كاتب نقابة عمال التعدين في سان بطرسبورغ من 1906 إلى 1909، وكان خطيبا جيدا، و منظمنا جيدا، وقد دخل في خدمة الشرطة السياسية في العام 1910، ربما بقصد تفادي عواقب حكم سابق ضده في قضية حق عام. و انضم إلى البلاشفة في العام 1911، و أصبح بفعل نشاطه مناضلا معروفا لدرجة ترشيحه إلى مجلس الدوما، و أصبح عضوا به، حيث ساهم هناك في تنظيم الانشقاق في الفريق الاشتراكي الديمقراطي. و في غضون ذلك، واصل بانتظام التخابر مع الشرطة السياسية، كاشفا أسماء المناضلين المستعارة، و مقرات الاجتماعات. وكان هو من سبب اعتقال ريكوف Rykov و نوغين Noguine قبل ندوة براغ، و سيفريدلوف Sverdlov و ستالين في العام 1914. و عمل لينين على انتخابه إلى اللجنة المركزية في العام 1912، و دافع عنه حتى النهاية ضد اتهامات المناشفة، حتى بعد استقالته الصاخبة من مهمة النائب بالدوما في مايو 1914. فقط بعد انتصار الثورة، كشفت أرشيفات الأوخرانا كامل حقيقة تصرفاته. عاد إلى روسيا بمحض إرادته، بعد أن كان أسير حرب، و حوكم بالإعدام و جرى إعدامه.

بغض النظر عن طابع المغامرة المثير، يجب فعلا الاعتراف أن بنيات التنظيم، و مناهجه و مبادئ عمله قد حمته نسبيا من نشاط عميل شرطة من هذا العيار. وقد أعطت شهادة لينين في محاكمته القضية حجمها الحقيقي: "كان يتوجب بنظر الأوخرانا بذل كل ممكن لإدخال ماليونوفسكي إلى الدوما و إلى اللجنة المركزية. و عندما تم بلوغ ذلك، بدا أن ماليونوفسكي أصبح إحدى حلقات السلسلة الطويلة التي تربط قاعدتنا الشرعية بأداتي حزبا الكبيرتين نحو الجماهير، أي جريدة البرافدا و الفريق الاشتراكي الديمقراطي في مجلس الدوما. كان على عميل الشرطة السياسية أن يحافظ على هاتين الأداتين ليصون تقننا به. لقد كان بوسع ماليونوفسكي أن يسقط، وقد أسقط فعلا رفاقا عديدين. لكنه لم يكن قادرا على وقف نشاط حزبا، و لا التحكم به و لا توجيهه، هذا النشاط المتنامي أهمية

و المتزايد تأثيرا على الجماهير، على عشرات ومئات آلاف الأفراد". و خلص لينين قائلا: " لن استغرب أن تكون أحد أسباب مغادرة مالبينوفسكي أنه كان في الواقع أشد ارتباطا بالبرفادا الشرعية و بالفريق البرلماني الشرعي اللذين كانا يقومان بعمل ثوري أكبر من أن تسمح به الأوخرانا" [18].

أصالة الحزب البلشفي

في الواقع، لم تكن أصالة الحزب البلشفي تكمن في تصور إيديولوجي، و لا في نظام ممرکز على نحو خاص. لم تكن الاشتراكية الديمقراطية الألمانية أقل مركزية، و لا أقل صرامة تنظيمية من الحزب الروسي. بإعجاب يصف بياتنيتسكي، المختص بالجهاز الروسي، المنظمة الاشتراكية في لايبزيغ، و الاشتغال نصف السري للنوى القيادية التي يسميها المناضلون "الفحامين". و قد كان "انضباط التكتل" مطبقا بصرامة على كل مستويات الحزب الألماني، وربما بصرامة أكثر، بفعل الشرعية و قدرة الجهاز المالية، التي قلما تنتج إمكان المبادرة. و ستكشف أزمة العام 1914 طبيعة الفرق بين الحزبين، حيث صوتت الاشتراكية الديمقراطية الألمانية على تمويل جهود الحرب، و دعمت حكومتها المنخرطة في الحرب، فيما دعا البلاشفة إلى تحويل الحرب الامبريالية إلى حرب أهلية. أصبحت الاشتراكية الديمقراطية الألمانية، و قد تكيفت مع النظام السياسي و الاجتماعي، حزبا إصلاحيا، فيما حافظ الحزب البلشفي، الذي ظل مناهضا بشدة، على منظوراته و سياسته الثوريين.

مرد هذا أولا أن الاشتراكيين الديمقراطيين الروس كانوا يعيشون و يناضلون في سياق تفجري بما لا يقاس مقارنة بسياق أوروبا الغربية. كان التطور المركب للمجتمع الروسي قد جعل البروليتاريا الصناعية طبقة اجتماعية ثورية للغاية، و هذا ما أبصره إسحاق دويتشر على نحو جيد حين كتب: " كانت الطبقة العاملة الروسية في 1917 إحدى عجائب التاريخ. صغيرة عدديا، و فتيية، و بلا تجربة و لا تربية، لكنها كانت غنية بالهوى السياسي، و المروءة، و المثالية و صفات بطولية ثورية نادرة. كانت لها موهبة الحلم بالمستقبل و الموت في المعركة موتا بطوليا" [19].

أعطى البلشفي بربويراجنسكي تحليلا نافذا لهذه الظاهرة بقوله: " إن طليعة طبقتنا العاملة نتاج رأسمالية أوربية شيدت بتدققها في بلد جديد مئات المقاولات الهائلة، منظمة وفق آخر تطورات التقنية الأوربية. عاملنا هو البربري الفتى المفعم بالقوة، الذي لم تفسده بعد الحضارة الرأسمالية، و لم يفسده بعد لين العيش و الرفاهية، و فئات مائدة مستغلي المستعمرات، و لم يحن الرأس بعد لنير الشرعية و النظام البرجوازيين. أجداده هم الفلاحون الذين كانوا ينهجون بيوت الأسياد و محاصيلهم، أولئك الذين كانوا يجلدون في اصطبلات komitetchiki، و الذين كانوا يرسلون إلى الأشغال الشاقة في مناجم الأورال و سيبريا. يجري في عروقه دم المتمردين الذين كانوا في عهد ستينكا رازين Stenka Razine و بوغاتشيف Pougatchev يهزون عرش قياصرة موسكو. بدأ عاملنا يمقت الرأسمال و يحاربه قبل أن يبجله بما هو منظم لنظام اقتصادي أرقى من الصناعة الحرفية، و بدأ يحتقره قبل أن يذوق الثقافة البرجوازية و يتعلق بها. لا يشبه بروليتاري الغرب، المروض بقرونيين من الصناعة المانيفاتورية و الرأسمالية، و لا بنصف البروليتاري بالهند و الصين. من لا يفهم هذه السمات الأصلية لن يفهم شيئا من منجزاته العجيبة، و لن يدرك جوهر هذه الظاهرة السوسولوجية المتمثلة في الحزب البلشفي. [...] كانت طبقتنا العاملة تجمع في ذاتها الحيوية الثورية، و عفوية الفتوة الطرية مع الانضباط الذي يلحم ملايين الكائنات التي يجمعها العمل حول الآلة" [20].

لم يكن في المجتمع الروسي في ظل القياصرة فرص استراحة للمناضلين العماليين. النقابات تتعرض للحل فور وجودها الفعلي، و المناشقة الأكثر "شرعية"، بما فيهم التصفيين، يتلقون من الشرطة ضربات تضاهي قسوة ما يتعرض له البلاشفة الأشد صلابة. لا يمكن أن تكون ثمة مناصب للبروقراطيين، و لا حتى للملتحقين المحترمين بالعدو، لأن المناضل الذي يريد التخلي عن النضال ليبيع نفسه لن يجد سبيلا غير التخابر مع الشرطة. ما من تكيف ممكن مع الدولة بدون استسلام مفتوح، و ليس للإصلاحية، التي ولدت في الغرب كحالة ذهنية قبل تجسدها في اتجاه داخل المنظمات العمالية، ثم كفتة ذات امتيازات، جذور جدية في روسيا. إن ظروف النضال السياسي و الاجتماعي تجعل من المناضلين نخبة سخية و جريئة و خالصة. يجب مضاعفة الحيل و المبادرات للحفاظ على المنظمة و الحفاظ على الصلات مع العمال. لا يمكن لأي رتبة أن تقوم لها قائمة، و يجب معرفة استعمال الفرص.

العمل العمالي

تولي كل مذكرات المناضلين البلاشفة في فترة ما قبل 1914 مكانة واسعة لذكريات "حملة التأمينات" المنظمة بعد سن قانون 23 يونيو 1912 حول التأمين ضد المرض. استعمل الحزب كل أوجه ضعف النص القانوني من أجل تعبئة العمال، الذين سينتزعون تباعا حق تنظيم اجتماعات شرعية حول مسائل التأمينات، ثم حق انتخاب مندوبين لتمثيلهم في صناديق التأمين، و أخيرا تعديل النص حول شروط الاستفادة من القانون. إنه تقريبا الطرف الوحيد حيث تمكن هؤلاء المناضلون من التدخل على نحو شرعي في التجمعات العمالية و القيام، في كل المصانع، بعمل مدبر.

إن تحريضا من النوع النقابي، حيث يتمكن البلشفي من التوجه إلى مجموع العمال، يستوجب ظروف مواتية، يجهد أحيانا خلقها. كان شليابنيكوف Chliapnikov عاملا بمصنع في سان بطرسبورغ، قام في البدء بحملة في مشغله من أجل " تساوي أجور عمال نفس المهنة، أو الذين يقومون بنفس العمل بالقطعة" [21]. رغم أن تفاوت الأجور ضئيل، غالبا ما كان هذا الشعار الموحد نقطة انطلاق التحريض البلشفي في المقابلة. وفي طور آخر يتعين حوض تحريض أوسع، و محاولة إطلاق تحركات. و لا يوجد للقيام بذلك أي إطار، و لا مكتب فرع نقابي، و لا جمع عام ممكن في الشرعية. يجب مع ذلك التوجه إلى العمال، و هذا غير ممكن إلا بعد تحضير دقيق، كان لدى البلاشفة تقنية متقنة: ما عدا الاستثناء مثل حملة التأمينات، لا جمهور لديهم سوى في اجتماعات مفاجئة. يجب تحضير هذه الاجتماعات بعناية، و في اللحظة المختارة سد باب خلال استراحة، في غرفة طعام، أو أدراج لحظة الخروج. ومع ذلك يتعين على الخطباء المحييين على هذا النحو أن يكونوا على استعداد للهرب عند الإنذار. يكون "تناول الكلمة" مقتضيا، و غالبا ما يأتي الخطيب من خارج، مع وجوب حجب وجهه بقبعة أو منديل كي لا يخاطر بالتعرف عليه و الوشاية به. و على مناضلي المصنع طبعاً أن يعدوا تجمع المستمعين و الحرص على سلامة رفيقهم: يجب عليهم، في خضم هذه التحضيرات، أن يضاعفوا الاحتراز، خشية الوشاة، و تفادي التعرف عليه أثناء تناول الكلمة، دون التوقف عن المراقبة.

عندما يجد المناضل عمالا متعاطفين، يجب دفع النقاش، الخطير، على أرضية الأفكار. لهذا يجب تفادي الأماكن العامة المرتادة بكثرة و الموبوءة بالوشاة. كما يجري تفادي الاجتماع في بيت خاص، لأنه بقدر قلة العناوين المعروفة تقل المعلومات التي تصل إلى الشرطة. تنظم إذن اجتماعات طائرة، في زورق، يوم عطلة، أو ورش مهجور يتم التأكد من خلوه عادة في تلك الساعة. إذا لم يكن بد من اجتماعات بحضور عديد، تعقد في الغابة يوم الأحد، حيث يقوم مراقبون بحماية الاجتماع من المتجولين الفضوليين.

المنظمة السرية

يكون العامل الذي انضم إلى الحزب متمرسا على أساليب العمل السري. وسيغطس فيه أكثر. ولا يعلم اسمه وعنوانه سوى مسؤول واحد فقط، وهو معروف ويعرف رفاقه في الحزب باسم حركي مستعار غالبا ما يتغير عند الضرورة بقصد تضليل الشرطة. ثمة في القاعدة، في المشغل أو المصنع، الخلية التي غالبا ما تسمى "اللجنة" أو "النواة". ولا تقوم بالتنسيق سوى بالانتقاء، وكل قادم جديد يكون موضوع فحص و يقبله الأعضاء قبل استقطابه إلى التنظيم.

وصف بياتنيتسكي بدقة هرم الحزب في مدينة أوديسا عام 1905 قائلا: فوق لجان القاعدة، ثمة الدوائر الفرعية و الدوائر و لجنة المدينة، تستقطب كلها بالانتقاء حصرا. تضم كل لجنة مناضلين مسؤولين، بوظائف محددة بدقة، و لا صلة لهم سوى بمماتليهم في المستوى الأدنى أو الأعلى، كما أن الصلات العمودية مقلصة إلى حدها الأدنى، بقصد زيادة حواجز الفصل وتفادي أن يؤدي اعتقال فرد إلى سلسلة اعتقالات بالمنظمة برمتها. يجب، قدر الإمكان، ألا يلتقي المناضلون خارج الاجتماعات. ثمة فقط مداومات سرية، في يوم وساعة محددتين، مع تفضيل تنظيمها في مقاهي حيث يمكن الالتقاء كباقي الناس في حالة ضرورة قسوى. تجتمع لجنة أوديسا في مقرات خاصة، وهي التي تمسك بكل خيوط التنظيم، لأنها ترأب كل المناضلين بواسطة دوائر و دوائر فرعية، وتعين علاوة على ذلك كل خطباء الاجتماعات بالمصانع ومسؤولي المجموعات الدراسية التي يتعين على المناضلين تجميعها حولهم [22].

وكانت منظمة موسكو في العام 1908 أشد تعقيدا، وأكثر ديمقراطية في أن واحد، حيث توجد في القاعدة تجمعات مصانع، بقيادة لجنة منتخبة، وفوقها بعض الدوائر الفرعية، و لا سيما ثمانية دوائر تحت قيادة لجنة منتخبة من مندوبي تجمعات المصنع. وفي القمة لجنة موسكو المنتخبة مباشرة في تجمع خاص لمندوبي تجمعات المصانع. ولدى هذه اللجنة تعتمد لجان مختصة: اللجنة العسكرية، التي تضم مكتبا تقنيا له مسؤول لا يعرفه داخل الحزب غير كاتب وحيد، ومكتب خاص بالدعوة ضد النزعة العسكرية لدى المجندين مستقبلا و بالعلاقة مع العمال المجندين، ومكتب طلاب و مكتب محاضرين و صحافيين، مكلف باستعمال الكفاءات، وتكوينها عند الاقتضاء، وتوزيعها حسب الحاجات في هذه الدائرة أو تلك أو لجنة المصنع هذه أو تلك، ولجنة مالية [23].

وفي قلب الحزب تقوم، أخيرا، اللجنة التقنية التي تتطلب مهامها المتعددة و الهامة تخصصا و كفاءة و سرية. يجب الحصول على جوازات سفر، هذا الشرط الأول لكل عمل سري. و أفضل الجوازات هي الحقيقية (غير المزورة) المطابقة لشخص حي و لا شبهة عليه، وتسمى "حديدية". لكن أغلبية الجوازات التي يتوفر عليها الحزب مزورة يصنعها بنفسه. كان لدى شليبينكوف خلال الحرب جواز سفر باسم مواطن فرنسي، مكنه من عطف الشرطة الحريصة على حسن معاملة مواطن بلد حليف. وقد دخل كريلنكو Krylenko الجيش بهوية مزورة، وأصبح ضابطا به. وتتمثل إحدى أهم مهام الجهاز التقني، الذي كان كبار مختصيه كل من بياتنيتسكي Piatnitski و الجيورجي افيلي اينوكدزي Avelii Enoukidze ، في نقل ونشر " الأدب" القادم من الخارج: يمر هذا الأدب عبر الجمارك في حقائب مزدوجة القعر، لكن أيضا عبر شبكات تهريب، حيث يكون "العابرون" محترفين يعملون بمقابل أو مناضلين أو أنصارا نظموا بشكل خاص شبكة تستعملها عند الحاجة منظمات سياسية سرية عديدة.

وكانت المطابع السرية هي التي تطرح أكبر المشاكل. يجب إقامتها في مكان معزول، أو على العكس كثير الضجيج، غالبا في قبو، وأحيانا فوق مستودع كي لا يثر الذهب و الإياب الانتباه. يجب التزود بالآلة و اجتياز شروط مالية بالغة القسوة لأن البيع غير الشرعي خطير على البائع أيضا. يتم أحيانا توريدها قطعة قطعة إلى المقر الملائم. و يكون عمال المطابع أعضاء الحزب هم من يزود بالقطع الصغيرة و الحروف المسروقة من مشاغلهم، بكميات ضئيلة، خلال أشهر مديدة. ويتبر مشكل الورق، شراء و نقلا، مشاكل جمّة، ذهابا و إيابا على السواء، ويسهل غطاء مخبزة أو دكان فواكه العملية. و يمثل ترويح المعدات، المطبوعة محليا أو القادمة من الخارج، عملية كبيرة النطاق: يوضع الصندوق ضمن أمتعة أخرى، ويتم أكثر شاحنة، يعطى سائقها عنوانا خاطئا يُغير في مجرى الطريق لإرساله لتسليم البضاعة في مستودع حيث يجري سحبها في ربع ساعة التالي. يعيش المسؤولون عن هذه المهام حياة أناس مطاردين: لا يغادر بعض عمال الطباعة السريين القبو حيث عملوا و كلوا و ناموا طيلة شهور سوى إلى السجن.

العمل " المناهض للنزعة العسكرية" قريب من الجهاز التقني: إنه خطير على نحو خاص، ويتطلب درجة سرية صارمة جدا. يوزع البلاشفة في مجالس المراجعة مناشير تشرح للمجندين دور الجيش في خدمة المستغلين، وتذكرهم بتضامنهم مع العمال، وتدعوهم إلى تعلم مهنة السلاح بوعي، للتمكن يوما ما من استعمالها ضد الأعداء الطبقيين. ظروف هذا العمل قاسية. فقط في الحقبة الثورية، من 1905 و 1907، و بدءا من 1917، نجح البلاشفة في تنظيم حلقات سرية داخل الجيش و الأسطول، وفي نشر جرائدهم الخاصة (التكنة أو حياة الجندي) في التكنات و البواخر. و بالمقابل، تمكنوا دوما من الحفاظ على صلة، ولو متقطعة، مع مناضليهم وحتى أنصارهم المجندين.

وكان لدى البلاشفة في العامين 1905 و 1906 منظمات قتالية، "مجموعات خاصة مجنّدة من المناضلين"، بقصد " تامين قيادة مباشرة للانتفاضة المسلحة": "مجموعة تقنية" بقيادة كراسين، صنعت أسلحة و ذخيرة، و أمّنت التعليم العسكري للمجموعات القتالية. و قرر مؤتمر لندن حلها، اعتبارا " لتحولها المحتوم في الشروط الراهنة إلى حلقات ضيقة من المتأمرين" الذين "يكونون في عزلة عن الجماهير، و تسقط معنوياتهم، و يبثون التفكك التنظيمي في الحزب". وقد كان نشاط هؤلاء الأنصار، البيوفيكي boieviki ، الذين يحتمل أن يكون ستالين أحد منشطهم، أثار سجلات حادة داخل الحزب. فقد كانت "عمليات نزع الملكية" جوهر نشاطهم، وكانت تنطوي على خطر انحطاط محيط لقطاعات هامة من المناضلين مع خطر إفقاد الحزب برمته الاعتبار.

فقد كان تمويل أنشطة الحزب يطرح مشكلا كبيرا، إذ لم تكن مساهمات الأعضاء في يوم ما كافية. يشير تقرير لجنة باكو إلى أنها شكلت في بعض الفترات أقل من 3 بالمائة من المداخيل. و يورد ياروسلافسكي [24] laroslavski مع ذلك لجانا محلية، مثل لجنة ايفانوف-فورزنيسينسك و لجنة لودز حيث تمثل المساهمات نسبة 50 بالمائة من المداخيل. وغالبا ما يكون مصدر القسم الأعظم من التمويل من مساهمات منتظمة من أوساط المثقفين، تحت رقابة لجنة مالية خاصة. وقد حصل البلاشفة على هذا النحو على مبالغ كبيرة من نصير ثري بواسطة ماكسيم غوركي و رجل الصناعة موروزوف عبر كراسين. وكان أحد اشد النزاعات بين البلاشفة و المناشفة قد نشأ عن خلاف حول هبة للحزب بمبلغ كبير أورثه بعد انتحاره طالب نصير كانت إحدى أخواته المنفذة لوصيته زوجة للبلشي تاراتوتا [25]. ويورد شابيرو ضمن أهم الممولين الطالب تيخومرونوف، رفيق مولوتوف بجامعة كازان [26]. وأخيرا ساهمت بعض عمليات " نزع الملكية" بشكل كبير في تغذية صناديق الحزب. لكن، في المجمل، ظل الحزب ناقص التمويل، وكان الثوريون المحترفون يقضون أحيانا شهورا في انتظار أجرة قد تتراوح، حسب ياروسلافسكي، بين 3 و 30 روبل شهريا في أقصى حد. [27].

رغم تأكيد البلاشفة على تحالف العمال و الفلاحين، كان العمل التنظيمي بين الفلاحين بدأ بالكاد قبل الثورة، ما عدا بعض مجموعات العمال الزراعيين. وحدها مناشير وكراسات جرى توزيعها بشكل متقطع في القرى من طرف مجموعات عمالية.

وكان للعمل الطلابي حجم أكبر في المدن الجامعية التي كانت بها مكاتب اشتراكية ديمقراطية خاصة بالطلاب، ومجموعات اشتراكية حيث يتواجه مناضلون من مختلف التكتلات: كان ثمة البلاشفة وكانوا يستقطبون، كما كانوا يفعلون كلما أمكن في حلقات التلاميذ. في العام 1907، دعت مجموعة شباب بلاشفة ، بقيادة بوخارين و سوكولنيكوف Sokolnikov ، إلى مؤتمر وطني للطلاب الاشتراكيين الديمقراطييين. وقد زالت هذه المنظمة في السنة اللاحقة، ولم تكن ثمة

أي محاولة لتشكيل منظمة طلاب مرتبطة بالإيديولوجية البلشفية حتى عام 1917. ويبدو أن رأي كروبسكايا في تلك الفترة كان غالباً: كانت حملة لينين تهدف إلى قيام منظمة شباب ثوري بقيادة الشباب أنفسهم، أيا كانت مخاطر ارتكابهم أخطاء، وهذا بنظره أفضل من خنقهم بوصاية "البالغين" ذوي النوايا الحسنة. في وضع الشباب الروسي، يستبعد هكذا تصور منظور بناء منظمة شباب بلشفية خالصة.

المناضلون

بيد أن قلب منظمة البلاشفة، "الكتيبة الحديدية" للمناضلين المحترفين، جرى تجنيدها من شباب قتي، عمال أو طلاب، في حقبة ومجتمع قلما أتيح فيه للطفولة أن تمتد، بخاصة في الأسر العمالية. إن شباباً يقل عمرهم عن عشرين سنة هم من تخلى عن كل مهنة وكل طموح غير الطموح السياسي والجماعي، و التزم بلا عودة ليمتثل مع النضال العمالي.

مثال هؤلاء ميشال تومسكي، عامل طباعة، الذي دخل الحزب وعمره 25 سنة، وكان بذلك استثناء رغم ما قضى من سنوات مناضلاً لاجزيباً. ففي عمره كان لأغلبية الآخرين رصيد سنوات من النضال السياسي. وأصبح الطالب بياتاكوف Piatakov، سليل أسرة برجوازية كبيرة في أوكرانيا، بلشفياً وعمره عشرون سنة. وانضم الطالب روزنفيلد Rosenfeld، المدعو كامينيف، إلى الحزب وعمره 19 سنة، مثل عامل التعدين شميدت والميكانيكي إيفان سميرنوف. وفي عمر 18 سنة انضم إلى الحزب كل من عامل التعدين باكاييف Bakaiev، والطلاب بوخارين وكريستينسكي Krestinski والاسكافي كاغانوفيتش Kaganovitch. أما المستخدم زينوفايف، وعاملي التعدين سيربيرياكوف Sérébriakov ووتوفينوف Loutovinov، فقد أصبحوا بلاشفة في عمر 17 سنة. وكان سفيردولوف مشغولاً عند سيدلاني لما بدأ النضال وعمره 16 سنة مثل التلميذ كويبيشيف Kouibychev. ودخل الاسكافي دروبنيس Drobnis والتلميذ سميغا Smilga الحزب في عمر 15 سنة وبياتنيسكي في عمر 14 سنة.

لم يتخط بعد هؤلاء الشباب سن المراهقة إلا وقد أصبحوا مناضلين قدامى وأطرا. سير سفيردولوف وعمره 17 سنة المنظمة الاشتراكية الديمقراطية في سورموفو، وقد سمته الشرطة الباحثة عنه "الصُغَيْر". وكان عمر سوكولنيكوف Sokolnikov 18 سنة لما كان كاتب دائرة الحزب بموسكو. وكان عمر ريكوف 24 سنة لما كان، في لندن، ناطقاً باسم "اللجانين"، ودخل اللجنة المركزية. وكان زينوفايف، مشهوراً كمسؤول بلشفي في بطرسبورغ، ومحسراً لجريدة بروليتاري، لما دخل اللجنة المركزية وعمره 24 سنة. وكان عمر كامينيف 22 سنة لما كان مندوباً بلندن إلى ندوة تاميرفو. وكان سيربيرياكوف احد منظمي المنظمات السرية في روسيا و احد مندوبيها العشرين إلى براغ في 1912 وعمره 24 سنة.

جاء هؤلاء الشباب في موجات متتالية، مصادفة للإضرابات وللحركات الثورية. بدأ القدامى النضال حوالي العام 1898، وأصبحوا بلاشفة منذ 1903، وبعدهم جاء جيل 1905 والسنين التاليين، وانضم جيل ثالث إلى الحزب بدءاً من 1911-1912. كانت حياة هؤلاء المناضلين عبارة عن سنوات سجن، وعمل سري، وأحكام، و منافي. بدأ بياتنيسكي، المزداد عام 1882، النضال عام 1896. اعتقل عام 1902، وهرب وانضم إلى المنظمة "الاييسكرية"، ثم هاجر. و ناضل بالخارج حتى العام 1905، وعاد إلى روسيا في هذا التاريخ، ونضال في أوديسا حتى العام 1906، ثم في موسكو من 1906 إلى 1908. اعتقل، وهرب من المعتقل، وانتقل إلى ألمانيا حيث اضطلع بوظائف هامة في الجهاز التقني حتى العام 1913.

خلال ذلك الوقت تعلم مهنة الكهربائي. وعاد سريراً إلى روسيا عام 1913، و وجد عملاً في مصنع و اعتقل من جديد ثم نُفي عام 1914. وثمة سير أكثر إثارة: ولد سيرج مراتشوفسكي Mratchkovski في السجن من أبوين معتقلين سياسيين، وكبر فيه طفلاً قبل أن يعود إليه بالغا، لحسابه الخاص هذه المرة. وكان تومسكي لما بلغ السابعة والثلاثين قد جمع 10 سنوات من السجن والمنفى. وكان ميليوتين اعتقل 8 مرات، وحكم عليه بالسجن 5 مرات ونفي مرتين. وقضى دروبنيس 6 سنوات في السجن وحكم عليه 3 مرات بالإعدام.

كانت معنويات هؤلاء المناضلين فوق كل تحدي، و وهبوا أفضل ما لديهم، مقتنعين أنهم لن يعبروا عن كل إمكانات ذكائهم القتي الفائر إلا على هذا النحو. دخل سفيردولوف السرية وعمره 19 سنة، من أجل تنظيم العمال في كوستروما، كتب إلى صديق قانلاً: "أسف لمغادرة نيجني-نوفغورود، لكنني إجمالاً مسرور لمغادرتها لأنني لن أتمكن هناك من إطلاق جناحي، واعتقد أن لدي جناحان. في نوفغورود تعلمت العمل و وصلت إلى هنا مسلحاً بخبرة، و لدى مجال عمل واسع لنشر قواي" [28]. تعرض بريوبراجنسكي، المشرف على العمل السري في الأورال في حقبة الردة الرجعية للاعتقال والمحاكمة. ولما حاول محاميه كيرينسكي إنكار التهم، وثب و تبرأ منه، وأكد اقتناعاته وتبنى مسؤولية عمله الثوري. وطبعاً أدانته المحكمة. و فقط بعد نجاح الثورة اكتشف الحزب في هذا المناضل المحترف منذ كان عمره 18 سنةً منظرًا اقتصادياً مرموقاً.

كان هؤلاء المناضلون يدرسون، وقد كان أمثال بياتاكوف الذي كتب بحثاً حول سيبينغلر لما كان مطارداً في أوكرانيا في العام 1918، و بوخارين، متقنين من العيار الثقيل. و كان الآخرون، رغم أنهم أقل نبوغاً، يدرسون كلما تمكنوا لأن الحزب لم يكن مدرسة بالمعنى المجازي فقط. و غالباً ما تتعلم فيه القراءة، ويصبح فيه كل مناضل أستاذاً، ويجمع حوله حلقة تدريس و نقاش. يسخر خصوم البلشفية من هذا الميل إلى الكتب الذي يبدو أحياناً قد حول الحزب إلى " ناد للسوسيولوجيا"، لكن ندوة براغ جرى فعلاً تحضيرها بتكوين عشرات المناضلين في مدرسة الأطر في لونجومو حيث استمعوا وناقشوا 45 درساً ألقاها لينين، منها ثلاثين حول الاقتصاد السياسي، وعشرة حول المسألة الزراعية، ودرسا حول تاريخ الحزب الروسي، وتاريخ الحركة العمالية الغربية، ودرسا في القانون، و الأدب وتقنية العمل الصحفي. طبعاً ليس كل بلشفي عالماً علامة، لكن ثقافتهم ترقى بهم فعلاً فوق المستوى المتوسط للجماهير، و سيخرج من صفوفهم بعض ألمع مثقفي القرن. لا شك أن الحزب يرقى بأعضائه، وعلى كل حال ليس الثوري المحترف ذلك البيروقراطي كما جرى وصفه غالباً بتحيز.

كتب عنهم تروتسكي، الذي عرفهم و قاسمهم حياتهم دون أن يكون منهم، لأنه لم يكن بلشفياً، قانلاً: " كانت فتوة الجيل الثوري تصادف فتوة الحركة العمالية. كانت تلك حقبة مناضلين عمرهم بين 18 و 30 سنة. وكان الأكبر عمراً يعدون على رؤوس الأصابع و يبدوون شيوخاً. وكانت الحركة خلوا تماماً من الوصلية، وتعيش بإيمانها بالمستقبل و بروح التضحية. لم يكن ثمة رتابة و لا صيغ مصطنعة ولا حركات مسرحية، و لا أساليب خطابية. كانت كلمات "الجنة" و "حزب" ذاتها لا تزال جديدة، مع هالتها الطرية، وكان لها صدى جذاب و مثير لدى الشباب. و من كان ينضم إلى المنظمة يعلم أن السجن و النفي في انتظاره بعد بضعة أشهر. و كان الشرف متمثلاً في قضاء أطول مدة قبل الاعتقال، و التصرف بصلافة بحضور الدرك، و دعم الرفاق المعتقلين أكثر ما يمكن، و قراءة أكثر ما يمكن من الكتب في السجن، و الفرار في أسرع وقت من المنفى لالتحاق بالخارج، و التزود هناك بالدراسة للدخول إلى البلد و استئناف العمل الثوري. كان الثوريون المحترفون يؤمنون بما يدعون إليه، ولم يكن ثمة شيء آخر قد يحثهم على انتهاج طريق المحن الشديدة. [29]

و لا ريب أن ليس ثمة ما يفسر أفضل انتصارات البلشفية، وبخاصة الكسب البيئي ثم الصاعق لمن كان بوخارين يسميهم "دائرة الحزب الثانية"، وسائل الإرسال و الالتقاط، و رافعاته في الحقبة الثورية، أي العمال الثوريين، منظمي النقابات و لجان الحزب، أقطاب المقاومة، ومركز المبادرات، المنشطين و

المربين الذين تمكن الحزب من الاندماج في الطبقة و قيادتها. هؤلاء كاد التاريخ ينسى أسماءهم في كل الحالات. كان لينين يسميهم "الأطر من طراز كايروف"، وهو العامل الذي أخفى لينين في العام 1917 بضعة أيام وظل واثقا به دوما. لا يمكن فهم " المعجزة" البلشفية بدون هؤلاء.

لينين

لن يكتمل وصف ما كان عليه الحزب البلشفي إلا بمحاولة عرض صورة عن الشخص الذي أسسه وقاده حتى وفاته. طبعا يتماثل لينين على نحو ما مع الحزب، لكنه مغاير جدا. أولا، يكاد لينين يكون وحيد جيله، فرفاق نضاله الأوائل، مثل بليخانوف الذي يكبره سنا، ومارتوف معاصره، كانا قادة للمناشفة. و ضباطه للمرحلة الأولى، مثل كراسين و بوجدانوف، ابتعدا. وفي حقبة ندوة براغ، كان عمر أقدم مساعديه المباشرين، مثل زينوفايف، وكامينيف، وسفيردلوف، ونوغين، أقل من 30 سنة. كان عمر لينين آنذاك 42 سنة، وكان لدى البلاشفة الوحيد من جيل قبل ايسكرا، جيل رواد الماركسية. وكان شباب النواة البلشفية تلامذة لينين في المقاوم الأول.

ليس المقام هنا لتحليل قدرات لينين الفكرية، وثقافته، وقدرته على العمل، و سرعة البرهان لديه، و فطنة تحليله وعمق منظوراته. نشير فقط إلى أنه، و عيا بضرورة الأداة التاريخية التي يمثلها الحزب، استبسل في بنائه و توطيده خلال تلك المرحلة كلها، استنادا على منظورات ومعطيات حركة الجماهير، و على ثقة متميزة في صلابته تحليله و حدسه. مدركا بعمق حتمية الصراعات الإيديولوجية، كتب إلى كراسين قائلا: " من الطوباوية انتظار تضامن كامل داخل اللجنة المركزية أو بين الوكلاء". و عارك بقصد الإقناع، متيقنا من صواب رأيه، و من أن التطور السياسي سيثبت هذا الصواب. ولذا قبل في الأخير، خالي البال، هزيمة توقعها مؤقتة، كالتى منى بها بوجه اللجانين في مؤتمر 1905، عشية ثورة يدرى أنها ستكس روتينهم. في متم هذا العام، خضع لاندفاع المناضلين من أجل إعادة توحيد للحزب اعتبرها سابقة لأوانها، لكنه قلل مسبقا الخسائر المحتملة بتركيز قواه للحصول في الحزب الموحد على انتخاب اللجنة المركزية وفق التمثيل النسبي للاتجاهات.

بين العامين 1906 و 1910، ضاعف الجهود لإقناع المنشقين عن تكتله، و ترك لهم في النهاية مبادرة القطيعة. و في العام 1910 انحنى أمام سياسة " التوفيقين"، التي دافع عنها دوبرافينسكي الذي كان ينظره مناظلا ثمينا يأمل إقناعه سريعا بالتجربة.

و متصليا في كل المسائل التي يعتبرها أساسية- العمل اللاشعري بنظره إحدى محكات الطابع الثوري للعمل النضالي- كان لينين يتراجع و يتوافق، ليس فقط عند وجوده في وضع أقلية حيث يجب أن يكون قدوة في الانضباط الذي يطالب به حين يكون في وضع أغلبية. ليس هدفه أن يكون على حق وحده، بل صنع الأداة التي ستتيح له التدخل في الصراع الطبقي و أن يكون على حق تاريخيا، " على نطاق الملايين"، كما كان يردد: لكي يحافظ على تكتله، و على مناضلين المفرضين بعناية طيلة سنوات، كان يعرف كيف ينتظر وحتى كيف ينحني، لكنه لا يخفي أبدا انه لن يتردد في إعادة بدء كل شيء إذا مس خصومه ما يراه أساسيا. في السجال الإيديولوجي و السياسي، يبدو دوما شاحدا للزوايا، و دافعا للتناقضات حتى نهايتها القصوى، مبرزاً للمفارقات، و مسطحا وجهة نظر خصمه وحتى مقدما إياها في مظهر مثير للتهكم. إنها أساليب المحارب الساعي إلى النصر، و ليس المساومة، و إلى تفكيك آلية فكر خصمه و جعل المشاكل مفهومة بسهولة للجميع. لكنه لا يتغاضى قط عن وجوب الحفاظ على تعاون من يصارعهم في العمل المشترك. لما كان، خلال الحرب، في خلاف مع بوخارين حول مسألة الدولة، طلب منه ألا يكتب أي نص حول الموضوع كي لا يفاقم الخلافات حول أمور يعتبرها كلاهما بحاجة إلى مزيد من الجهد الفكري.

يحتاج دوما، و ينحني أحيانا، لكن لا يتخلى أبدا عن السعي إلى الإقناع، لأنه على هذا النحو دون غيره، مهما قال ويمكن أن يقول مشنوعه، حقق انتصاراته و أصبح قائد تكتله، الذي بناه بيديه و اختار مناضليه وكونهم. وكان هذا بنظره عاديا، وكان يرد بلا انزعاج على الذين تلقفهم النزاعات بين رفاق السلاح: " فلينتحب الأشخاص العاطفيون و ليتأوهوا : صراعات مرة أخرى ! انشقاقات داخلية مرة أخرى ! و مساجلات مرة أخرى ! نحن نجيب: بدون صراعات جديدة و متجددة باستمرار لم تتكون قط حركة اشتراكية ديمقراطية ثورية" [30].

لذا لم يكن تأثيره الكبير على رفاقه تأثير كاهن، و لا ضابط، بل تأثير مربى ورفيق وأستاذ، مناضل قديم، الشيخ كما كان يدعى بلا تكلف، المثير للإعجاب بفعل نزاهته، وحدة ذهنه، و للتقدير بفعل معارفه و تجربته، والذي يمكن قياس أثره على التاريخ القريب، والذي يعلم الجميع انه مشيد التكتل و الحزب. يقوم تأثيره على قوة أفكاره، و مزاجه القتالي و موهبته في السجال، و ليس على نزعة امتثالية و انضباط متصلبين. من كراسين إلى بوخارين، ابرز رفاقه أن تعارضهم مع لينين كان مأساة ضمير بالنسبة لهم. لكنهم مع ذلك كانوا يتعارضون معه لأن الأمر واجب، " أول واجبات الثوري بنظره" أن ينتقد قاداته: لن يكون التلاميذ جديرين بالأستاذ ما لم يتجرعوا على محاربة وجهة نظره إن اعتبروها خاطئة. و ليس مع ربهوات يمكن بناء حزب ثوري. كان لينين يعلم ذلك، وكتب إلى بوخارين أن طرد الأشخاص الأذكياء، لكن قليلي الانضباط، لن يبق غير الأغبياء المنضبطين، و سيؤدي إلى خراب الحزب. هذا ما جعل تاريخ الحزب، و تاريخ التكتل البلشفي منذ 1903، تتابعا لصراعات إيديولوجية لا يخرج منها منتصرا إلا مقابل صبر مديد. يصعب، بهذا الصدد، فصل لينين عن تكتله حيث تولد وحدة الرأي عن نقاش شبه دائم سواء حول المسائل الكبرى أو تكتيك اللحظة.

ولا شك من جهة أخرى، أن قدرة لينين على أن يجمع، عبر صراع فكري، عناصر متباينة، و طبائع متعارضة، و مناضلين بميول متناقضة، من قبيل زينوفايف، و ستالين، و كامنيف، و سفيردلوف، و بريوبراجنسكي، و بوخارين، هي ما يفسر في النهاية نجاح عمله التنظيمي: " الكتيبة الحديدية، التي أراد أن يكونها الحزب البلشفي، وكانها فعلا، و لدت، كما تلك " البروليتاريا العجيبة" التي تكلم عنها دويتشر، من عقل الشخص الذي اختار ذلك الطريق لبنائها.

لكن هذا ما يفسر أيضا عزلة لينين. لم يكن أي من رجالات الحزب في مستوى قدراته: كان له مساعدون و تلاميذ ورفاق لكنه لن يعرف سوى مع تروتسكي - الذي ربما تفسر شخصيته ذاتها أنه لم يكن بلشفيا و لم يعترف قبل 1917 بهيمنة لينين، نوعا من الرفقة على قدم المساواة. وهذا ما سيجعل لينين، ضمن البلاشفة القدامى، رجلا لا يعوض رغم أنه، كما قال بريوبراجنسكي، كان "إسمنا يلحم الكتلة أكثر من قائد يسك الدفة". هذا لأنه إذا قبلنا مع بوخارين أن انتصارات الحزب كانت تعود إلى "صلابته الماركسية" و إلى " مرونته التكتيكية" - وهذا رأي البلاشفة القدامى- فيجب أيضا الاعتراف أن لينين وحده كان، من وجهي الأمر، الملهم وأن مناقضيه البلاشفة تعلموا مع الوقت عبر الهزائم المتكررة أن ينحنوا. و الحال أن الحقبة الثورية، إذ أقت به في التاريخ الذي تصنعه "الملايين و الملايين"، لم تنتج له وقت تكوين جيل ربما قد يعارضه على نحو ظافر. هذا هو الافتراض الذي يوحي به تاريخ الحزب حتى وفاة لينين، وفاة أتاحت أن تولد من هذا الفكر المعادي جوهريا للدوغمائية، دوغما " اللينينية"، التي ستحل مكان الروح "البلشفية" التي عرف كيف يخلقها.

تعريب المناضلة

أكتوبر 2011

- [1] Cité par Brian PEARCE, « Building the bolshevik party » dans Labour Review n°1, 1960, pp. 28-29
- [2] Cité par P.PEARCE, ibidem, p. 27.
- [3] YAROSLAVSKI, Histoire du P.C. de l'U.R.S.S., p.197.
- [4] LENINE, Œuvres choisies, t. I, p. 464.
- [5] LENINE, Selected Works, vol. IX, p. 92.
- [6] LENINE, Œuvres Complètes (en russe), 3^e éd., vol. VIII, pp. 13-15.
- [7] Ibidem, vol. X, p. 170.
- [8] KROUPSKAIA, Ma vie avec Lénine, p. 142.
- [9] Cité par TROTSKY, Ecrits, t. 1, p. 322.
- [10] Cité par ZINOVIEV, Histoire du P.C. B., pp. 103-104.
- [11] Ibidem, pp. 105-106.
- [12] Cité par John DANIELS, Labour Review n, 2, 1957, p. 48. (13) Cité par Brian PEARCE, op. cit., p. 29.
- [13] Cité par Brian PEARCE, op. cit., p. 29.
- [14] Cité par John DANIELS, Op. cit., p. 48.
- [15] KROUPSKAIA, Op. cit., p. 77.
- [16] BADAIEV, Les bolcheviks au Parlement tsariste, p. 49. (17) PIATNITSKI, Souvenirs d'un bolchevik, p. 148.
- [17] PIATNITSKI, souvenirs d'un bolchevik, p. 49.
- [18] BADAIEV, op. cit., p. 215.
- [19] DEUTSCHER, The prophet armed, p. 163.
- [20] PREOBRAJENSKI, op. cit.
- [21] CHLIAPNIKOV, « A la veille de la révolution », Bull. com., déc. 23, p. 958.
- [22] PIATNITSKI, op. cit., pp. 100-101.
- [23] Ibidem, pp. 136-138.
- [24] YAROSLAVSKI, op. cit, p. 163.
- [25] SCHAPIRO, The communist Party of the soviet union, pp. 107-108.
- [26] Ibidem, p. 130.
- [27] YAROSLAVSKI, op. cit., p. 164.

[28] cité par BOBROVSKAIA, Le premier président de la république du travail, p. 14.

[29] TROTSKY, Staline, p. 77.

[30] LENINE, Œuvres Complètes (en russe), 3^e éd., Vol.XII, p. 393.